عبد الرحمن الداخل[1]

حكم من (٧٥٦ — ٧٨٨ م)

إنّ أركان الدولة الاموية توطدت في اسبانيا وخفق علمها على ارجائها بمساعي القادة موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد العزيز بن موسى الذين وحدوا القوى البربرية والعربية والقوطية واستفادوا من الفرص التي بها جعلوا عرى الوفاق متينةً بما اظهروهُ من الحنكة في تساهلهم مع اهل البلاد ومناصرتهم شعوبها المضطهدة ورفعهم مستوى الفلاح والعبد والصانع الذين يكوّنون اكثرية السكان. لكن بعد مصرع عبد العزيز بن موسى ثارت في رؤوس زعمائها نشوة الرآسة ورجعت العصبية الحزبية فانقسموا الى يمنيين ومضريين وفهريين وازدادت نفرة البربر فاخذوا يشعرون بوطأة الارستقراطية العربية وشدتها وكان ابتداؤها السياسة العنيفة التي جرى عليها موسى يوم عزل طارقاً واهانهُ . ان البربر اخذوا يشعرون بوحدتهم القومية التي تجلت فيما بعد باجلى مظاهرها في اواخر الدولة الاموية بقرطبة (١٠٣١ م)

نعم ان اسباب الضعف كانت متمكنةً حين التأسيس فبُعْد مركز الخلافة عن الاندلس وتمدُّد من تسنم عرشها لأمد قصير وكثرة من ساد من الولاة على القيروان اولئك الذين كان يرجع اليهم امر تعيين حاكم الاندلس كل ذلك منع الدولة من ان تسير حسب سياسة واحدة بيّنة عادية لا تعديل فيها

وكان امر بني امية في المشرق قد ضعف وشغلوا عن قاصية الثغور والممالك التي سادوها لعظيم امر الخوارج وانتشار دعوة العباسيين التي قامت على سيوف الاعاجم فبقي امر الاندلس فوضى لا نظام في الربوع ولا سلام في الديار واستفحل امر الجند فيها فاخذوا يولون ويعزلون ينهون ويأمرون ولا من زعيم تلتف حولهُ الجماعة. ومتى كان الجند قابضاً على زمام الامور فالراحة معدومة والارهاب مسيطر والفوضى ضاربة اطنابها اذ لا تجري الامور في مجاريها الاّ متى كان هناك حكومة

(١) سمي بالداخل تمييزاً له عن عبد الرحمن الثاني المدعو بالاوسط وعن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر وهو اول من دخل الاندلس من العائلة المالكة الاموية

كمدنية لها قوانين اساسية ترتبط بها فلا تجور على البلاد القوى العسكرية

فاتفق الجند على اقتسام الامارة بين المضرية واليمنية وادالتها سنة لكل من الحزبين [٢] فقدم المضرية على انفسهم الزعيم يوسف بن عبد الرحمن الفهري واستقر سنة ولايته بقرطبة غير انهُ حين انقضت مدتهُ استبد بالامر ولم يوف اليمنية ليماد ادالتهم يوم اتوهُ واثقين بمكان عهدهم واتفاقهم فاظهروا الاستكانة وتربصوا الدوائر ليفتكوا بهِ وليتحدوا مع اعدائهِ عليهِ

بينما كان الامويون في الغرب يتنازعون ويحصدون الرؤوس التي تقف في طريقهم من اجل السلطة ، بينما كانت اسبانيا لا تزال تئن من ويلات المعارك التي يأتي بها كل فتح غالباً ويهلكها الجوع الذي سطا عليها ، كان يضطهد هؤلاء الامويون في المشرق ففي سنة ٧٥٠ قتل مروان الثاني آخر خلفائهم في مصر واسلمهم العباسيون للسيف والنطع وكالوا لهم من المظالم والعذابات اشدها لكن متى تجاوز الانتقام حدودهُ ضعف اثرهُ ولم يجن صاحبهُ ثمراً . وهكذا لما طلب بنو العباس الامويين في كل صقع اتيح لكثير منهم الهرب والاستخفاء في الصحراء عند القبائل البدوية لقرب الشام من اطرافها [٣]

ولما رأى بنو العباس ان لا سبيل الى اعدامهم الا بالحيلة والمكر امّنهم السفاح وبذلك اصطاد ما يقارب الستين منهم وقتلهم جميعاً غير انهُ نجا من هذه المكيدة شاب اسمهُ عبد الرحمن لا يتجاوز العشرين وبيماً عيناهُ زرقاوان وشعرهُ اشقر جميل [٤] هو حفيد الخليفة هشام . فهرب ولم يزل يسير من مكان الى آخر حتى حلّ بقرية على الفرات ذات متجر وغياض يريد افريقية لكن ابو سلمى وزير السفاح العباسي بث في اثرهِ العيون وبعث بالاوامر الشديدة الى جميع حكام الولايات بالقبض عليهِ

وانهُ لجالس يوماً في تلك القرية في ظلمة بيت لرمد اصابهُ وبكر ولدهِ سليمان

---

(٢) ابن خلدون الجزء الرابع من كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر .. صفحة ١٢٠ المقري الجزء الاول صفحة ١١١

(٣) Histoire des Musulmans d'Espagne, Dozy الجزء الاول صفحة ٢٩٧ — ٢٩٨

(٤) History of the Conquest of Spain by the Arab-Moors, Coppé الجزء الثاني صفحه ٧٩

يلعب قدامهُ وهو يومئذٍ ابن اربع سنوات او نحوها اذ دخل الصبي من باب البيت فازعاً باكياً مضطرباً فخرج ابوهُ ليعرف ما الخبر فاذا بالروع قد نزل القرية والبيوت السود منتشرة في اطرافها فهالهُ الامر وسار مع اخٍ لهُ حدث السن طالباً النجاة بعد ان امر اخواتهِ ان يلحقن بهِ ومعهن بدرٌ مولاهُ الى مكان مقتصده وما هي الاَّ ساعة حتى اقبلت الجنود واحاطت الدار فلم تجد اثراً لهُ . ثم مضى ليبتاع ما يصلح لسفره لكن عبد سوء امرهُ عبد الرحمن باقتناء حوائجهِ دلَّ عليهِ فاشتد في الهرب مع اخيهِ وسبق الجند اللاحق بهما الى الفرات ورميا بنفسيهما فيهِ والخيل تناديهما من الشاطىء ارجعا لا بأس عليكما وكان عبد الرحمن ماهراً في السباحة الاَّ ان اخاهُ قصَّر واصفى اليهم فناداهُ «تقتل يا اخي اليَّ ليَّ» اما اخوهُ فاغتر بامانهم وخشي الغرق فانقلب اليهم وهناك على الضفة ضربوا عنقهُ وعبد الرحمن ينظر اليهم يرى دماء اخيهِ ويسمع استغاثتهُ ونفسهُ متألمة حزينة . إنهُ حمل فيهِ ثكلاً ملأهُ خوفاً ورعباً فسار الى غيضهِ توارى فيها حتى انقطع الطلب (٥)

سار عبد الرحمن يطلب افريقية فكان رفيق البدو في رحلاتهم وسمير الرعاة في طلبهم الماء والكلأ لا يغمض لهُ جفن الاَّ قليلاً حتى وصل الى فلسطين حيث التقى بدر مولاه ، فسر فيرقه وهنا تمكن من الهرب بعد ان احتاط ابن حبيب حاكمها للقبض عليهِ وكان هذا من صنائع بني امية غير انهُ خضع للنفوذ العباسي . فتخلص الى بني رستم ملوك تاهرت وقد اكرموهُ اكراماً عظيماً وتقلب على قبائل البربر الى ان استقر عند اخوالهِ بني نفزة الذين يسكنون بالقرب من سبتة

عبد الرحمن الشاب كانت تجول في صدره آمال كبيرة ويفكر بمطامع عظيمة . إن كبر همتهِ وشجاعتهُ ومزاياهُ اكسبتهُ ثقة بنفسهِ جعلتهُ يعتقد بانهُ خلق للعظائم من الامور . وكان يتوسم فيهِ ذلك عمهُ الاكبر مسلمة . كانت نفسه تصبو الى العلاء والنفوذ لكن عرش امية كان قد دك دكاً في الشرق وكان هنالك في العدوة الاسبانية عرش سالت من اجلهِ الدماء لم يتسنمهُ رجل ذو شخصية كبيرة لها في النفوس تأثيرها فبعث بدر مولاهُ الى المروانية بالاندلس وهم يؤلفون فرقتي دمشق وقنسرين وعددهم يتراوح ما بين الاربعمائة والخمسمائة وقد وصف في كتابهِ الى

(٥) المقري الجزء الثاني صفحة ٦٢ — ٦٣ نقلاً عن الاخبار المجموعة صفحة ٢٩٩ — ٣٠٢ من الجزء الاول . راجع الفصل السادس عشر من الجزء الاول

قادتهم الحال التعسة التي لاقاها الامويون في كل انحاء المملكة العباسية والسنين الخمس التي قضاها وهو شريد طريد ويُمرفهم مكانهُ من السلطان وسعيهُ لتيلو اذ كان الامر لجدهِ هشام فهو حقيق بوراثتهِ ويتلطف في ادخالهِ الى الاندلس ليعيش بين قومهِ وعشيرتهِ ويمدهم بالمراتب العالية والمناصب الفخمة ثم يشير اليهم بمن يأمنونهُ ويرجو مناصرتهُ وجمع كلمة اليمنية حولهُ اولئك الذين هم على المضرية المتنفذين احقاد

وقد كان من المخلصين لامية ابو عثمان عُبَيْدالله وعبدالله بن خالد وجملة طيبة من الضباط والجنود . واجتمع نحو ثمانين[٦] من كبار المسلمين الشاميين وعقدوا مؤتمراً قرروا فيهِ ان يولوا زعامتهم رجلاً يدير دفة البلاد بحزم كيما يرجع الامن الى نصابهِ . انهم كانوا يتألمون من المظالم والاحن التي كانت تنزل بالبلاد على ايدي افراد قلائل دون ان يأخذ العدل مجراهُ لبعد الشاسع الذي كان يفصل الشرق عن اسبانيا . ان بعد المسافة والوقت الطويل يلوّنان الحقيقة الناصعة ويزيانها ولذا كانت احكام العدالة في حيز العدم

وبكلمة وجيزة كانت مطالبهم تنحصر في نقطتين اساسيتين وهما اولاً تأسيس حكومة يرأسها رجل قوي عادل يضع حدًّا لتخاذل الزعماء . ثانياً انفصال اسبانيا عن المملكة الاسلامية في الشرق لانهُ في وسعها ان تسير الى الامام بخيراتها الوفيرة ومواردها الغنية[٧]

اما الرجل الطموح فكان بدر قد نشر لهُ في الاندلس ذكراً وبث لهُ دعوةً[٨] بين الموالي المروانيين فقرروا ارسال وفد على رأسهِ تمام بن علقمة الى افريقية ليحملهُ اليهم فركب عبد الرحمن البحر من مغيلة ونزل في المنكب Almunecar حيث استقبلهُ القائد ابن ابو عثمان وخالد وذلك في مايوس سنة ٧٥٦ . وكانا قد هيجا احقاد اهل اليمن على مضر فوجدا فيهم ارضاً خصبة للانتقام اذ أوغرت صدورهم باحقادهم المتأصلة فيهم

---

(٦) Coppé راجع صفحة ٨٥ ـ ٩١ من الجزء الثاني . راجع مؤتمر الثمانين صفحة ٨٩ Conde History of the Dominion of the Arabs in Spain الجزء الاول صفحة ١٦٦ الى ١٧٠ (٧) Coppé الجزء الثاني صفحة ٩٠

Conde الجزء الاول صفحة ١٦٨ (٨) ابن خلدون الجزء الرابع صفحة ١٢١

وقد سرت في الجيش دعوتهُ وسارع عدد كبير الى البدار لعبد الرحمن وتنادوا بشعارهِ واغلبهم من اليمنيين وبعض من قبائل البربر الذين اتوا اليهِ من زناته ومكناسه فشرع بالسير نحو قرطبة

إن جند يوسف كان كتلة واحدة من العرب الذين رضوا عن سياستهِ لعدم تشاغبهِ عليهم ومشاركتهِ اياهم في استغلالهم لكبر سنهِ وضعفهِ الاَّ انهم كانوا متخاذلين بعضهم مع بعض تأكل الضغينة صدورهم ولذا صعب ان يقاوموا مطامع الشاب عبد الرحمن الطموح. فسار الى مقاطعة ريه Régio حيث انضمت اليهِ فرقة ارشيدونا ومن ثمَّ الى شذونه مقر فرقة فلسطين فاشبيلية حيث استقبلتهُ فرقة حمص واليمنية بقيادة ابن الصباح . اجل لقد هرعت اليهِ قبائل سوريا ومصر لتقاتل تحت لوائهِ كما ان مدناً كثيرة ارسلت اليهِ سفراءها وفتحت لهُ ابوابها لما كان يأملهُ اهل البلاد من السلام والرخاء ايام دولته بعد ان توالت المجاعة قبل ذلك ست سنين اورثت الاندلس ضعفاً (٩)

ولما علم يوسف بقدوم ابن معاوية جمع جموعهُ من ماردة وطليطلة وبلنسيه واشار عليهِ الصميل بمهاجمتهِ قبل ان يكثر جندهُ وتصلح حاله ان امدَّهُ بالوقت الكافي غير انهُ صمم على الذهاب الى قرطبة اولاً لانها مركز الذخائر والمؤن وحين وصل اليها كان ابن معاويه قد دخل اشبيلية واتجه نحو قرطبة ايضاً للسبب نفسه محتذياً الضفة اليمنى من الوادي الكبير الى ان وصل صحراء الصارة غربي قرطبة وهناك تواجه الجيشان لا يفصل بينهما غير الوادي الكبير

وقد كان كل من الاميرين يسعى للانتصار جهدهُ فيوسف ان خذل كانت الضربة قاضية على آمالهِ وامانيهِ. اذ ذاك يحمل الثوار في الشمال اقوياء الشكيمة عدا عن الثقة التي يخسرها وهي من اهم العوامل للنجاح. اما عبد الرحمن فان قلب لهُ الدهر ظهر المجن رجع الى حالهِ الاولى شريداً طريداً لا حزب يعضدهُ ولا ذخيرة يعتمد عليها ولذا جعلا يتخابران ويتراسلان ليخدع كل منهما الآخر . فعرض يوسف على عبد الرحمن يد ابنتهِ (١٠) واملاك جده هشام في الاندلس وقد اظهر الاخير الرضا

(٩) المقري الجزء الثاني صفحة ٦٥
(١٠) Dozy الجزء الاول صفحة ٣٣٤

عن الشروط واحتال بنقل جنوده الى الضفة الثانية لكي لا يفصل بينها بعد ذلك فاصل وتأكيداً لذلك فقد طلب منهُ ان يمدهُ بالمؤن كاللحوم وغيرها ففعل ووقع يوسف في احبولة عبد الرحمن معتقداً انهُ قد ارجع الامور الى مجاريها دون ان تهرق الدماء لكنهُ لم يكد يبزغ فجر اليوم التالي ١٤ مايو الاَّ واجبرهُ عبد الرحمن على قبول معركة فاصلة يناجزهُ اياها فهزمت فرسانه الجناح الايمن والقلب وثبت الجناح الايسر بعد ذلك قليلاً من جند يوسف

إن معركة صحراء الصارة جعلت عبد الرحمن سيد قرطبة ولكنها لم تجعلهُ امير اسبانيا قاطبة لان يوسف التجأ الى طليطلة واتحد مع الصميل الذي قاد فرقة جيش واسترجعا العاصمة حين اخلاها ابن معاوية لنازلتهما ثانياً لكن كان قد فشل امرها فطلبا الصلح بشرط ان تحفظ لها املاكهما فقبل عبد الرحمن ما عرضاهُ عليهِ وآخذ ابني يوسف رهينتين عندهُ وحين رجع عبد الرحمن الى قرطبة رافقهُ يوسف والصميل وبذلك اعترفت بهِ اسبانيا اميراً لها (يوليو سنة ٧٥٦) (١١)

لكن النبلاء الفهريين والهاشميين والقرشيين والبلديين (١٢) ممن ضعفت سلطتهم واذلتهم السيادة الجديدة جعلوا ينفخون في بوق الفوضى ويشجعون يوسف على العصيان فهرب الى ماردة ونكث عهدهُ واجتمع اليهِ عشرون الفاً من اهل الشتات فعظم شأنهُ وخرج لمحاصرة اشبيلية غير ان حاكمها عبد الملك بن عمر بن مروان كسرهُ وشتت شملهُ واحتز رأسهُ بالقرب من طليطلة ومن ثمة قتل عبد الرحمن ولدهُ ابا زيد

وحكم على ابي الاسود ابنهِ الآخر بالسجن المؤبد . ومما يذكر ان الصميل لم يشترك في الثورة ومع ذلك فقد اعتقلهُ عبد الرحمن واوعز بخنقهِ

(التتمة في الجزء القادم) انيس زكريا النصولي

---

(١١) Dozy الجزء الاول صفحة ٣٥٧

(١٢) البلديون هم الذين تسموا الاندلس من العرب قبل الشاميين والداخلون بعد ذلك على موسى بن نصير وغيرهم ممن اتى مع بلج بن بشر القشيري يسمون الشاميين — الاحاطه في اخبار غرناطه للوزير لسان الدين الخطيب صفحة ١٧